دراسات في الإسلام

يصدرها
المجلس الأعلى للشئون الإسلامية
القاهرة

أحاديث إلى الشباب

(عن العقيدة والنفس والحياة)

في ضوء الإسلام

للأستاذ أنور الجندي

يشرف على إصدارها
محمد توفيق عويضة

العدد ١٦٥
السنة الرابعة عشرة
١٥ من ذي الحجة ١٣٩٤ هـ
٢٩ من ديسمبر ١٩٧٤ م

إهداءات ٢٠٠١

الدكتور/ الخطيب محمد طبلية

القاهرة

مكتبة الأسدية

بسم الله الرحمن الرحيم

« ومن أحسن قولا ممن دعا الى الله وعمل صالحا وقال اننى من المسلمين » .

(سورة فصلت)

أصل كل نهضة

نقطة البدء فى كل نهضة هى العقيدة : والاسلام وحده هو العقيدة القادرة على اطلاق طاقات هذه الأمة ، والاسلام منهج حياة وليس نظرية ، وفرق بينهما ، فالمنهج أصل ثابت متصل بالكون والحياة والانسان من خلال الوحى والفطرة • أما النظريات فهى من صناعة العقل البشرى •

ولقد ذاعت نظريات كثيرة ولمعت ، ولكنها عجزت عن العطاء الحقيقى للنفس الانسانية والعقل البشرى فى آن ، ولذلك فهى سرعان ما تصدعت وبان بمرور الزمن فسادها ، وقد حاول أهلها ادخال اصلاحات وتعديلات كثيرة عليها • وبذلك انكشف للناس الفارق الكبير بينها وبين مناهج القرآن الثابتة ثبوت الفطرة المرنة مرونة حركة الانسان ، القادرة على اعطائه مطامحه البشرية وأشواقه الروحية فى آن ، فهى قائمة على أساس الفطرة الانسانية التى لا تتغير فى أصولها ، والتى تستطيع استيعاب كل تغير وتطور وتجديد ، دون أن تفقد أصالتها وضوابطها •

ولقد جعل الاسلام قاعدته الأصيلة ، الاعتقاد بوجود الله الواحد الأحد الذى لا يتغير بتغير الزمان أو المكان ، وهو

to: www.al-mostafa.com

الحقيقة الواحدة التى لا يأتيها الباطل من قريب ولا بعيد مهما تحداها الناس بالانكار والنفى •

لقد دعا الاسلام الى وحدانية منزهة لاشائبة فيها ولم يلجأ فى اثبات هذه الدعوة الى خوارق العـادات أو القوارع التى تخرس الألسـنة ، بل الى الدليل والبرهان عن طريق العقل والوجدان والنظر فى الكون •

الدين فطرة انسانية أصيلة :

ليس الدين مرحلة فى حياة الأمم : وليس صحيحا أن الأمم قـد تجاوزت مرحلة الدين أو أن الدور الذى احتاجت فيه البشرية الى الدين قد انتهى ، والواقع أن الدين فطرة انسانية أصيلة وليس مرحلة فى حياة الأمم أوفى حياة البشرية ، بل هو كيان عضوى فى تركيب الانسان ، متصل بعقله وروحه وحياته ، لا سبيل الى انفصاله أو انتزاعه ، فاذا جاءت موجة من موجات الفكر البشرى لتضع بين النفس الانسانية وبين الدين ستارا أو حجابا ، وجدت البشرية نفسها فى دوامة من التمزق والضياع والاحساس العميق بغيبة شىء لاسبيل الى الحياة بدونه •

ولذلك فان القـائلين بأن الدين ليس مصـدرا من مصادر التوجيه ينكرون الفطرة ويتجاهلون شـطرا كبيرا من طبائع الأشياء والنفوس •

والبشرية لم تكن يوما من الأيام قادرة على حماية نفسها

من المطامع والحروب والصراع — حتى بعد أن أحرزت مفاتيح العلوم وعرفت سنن الطبيعة ، بل لعلها لم تكن فى يوم من الأيام أشد منها فى هذه الأيام صراعا واندفاعا واستعدادا ، والانسان هو الانسان مهما تقدم فى مضمار السبق العلمى ، وما لم تتقدم مفاهيمه النفسية والروحية فتعلو به عن الهوى والمادة والمطامع ، فهو يستعمل كل ما أحرزه من تقدم فى سبيل الشر ولن يكون الانسان آمنا على نفسه ومجتمعه الا اذا كان مؤمنا بالله ملتزما منهاجه متحركا داخل اطاره .

الدِّينُ الإِسْلَامِي أُسْلُوبُ حَيَاةٍ

ما من دين استطاع أن يوحى الى المتدينين به شعورا بالعزة أو الكرامة كالشـــعور الذى يخامر المســلم من غــير تكلف ولا اصطناع ، ذلك لأن الاسلام ليس دينا تعبديا فقط ولكنه أسلوب حياة تصطبغ به معيشة المسلم ظاهرا وباطنا ، فهو يسمو على أن يكون مجرد فكرة يناقشها أو نظرية يتأملها •

وما من دين استطاع أن يقدم للمؤمنين به سكينة النفس وطمأنينة القلب ، ويحجب عنه الانحراف والاضطراب والتمزق والضياع وتلك أبلغ مطالب الانسان وأقوى تطلعاته ، **بل ان رفاهية الانسان الحقة هى فى ايمانه وسكينته وطمأنينة قلبه ،** وكرامته المثلى فى أن يكون زاكيا فوق مطالب الأديان ودوافع الغرائز ، واذا كان هذا هدف الحضارة الحقة وأمل البشرية الأكبر فانه لن يتحقق الا بالدين والايمان واليقين ، وكل سبب من أسباب الطمأنينة والأمن والرضى منتزع من الانسان بانتزاع نفسه من الدين •

ولقد آن للبشرية أن تعلم أن هذه المناهج المبثوثة لن تحقق لها شيئا مما ترجو من سكينة النفس أو سعادة الحياة ، ولاسبيل

لها الى هذا الهدف وهو أغلى الأهـداف الا بأن تلتمس المنهج الربانى الذى رسمه لها الله ، صانع الانسان والحياة فهو وحده السبيل الذى سيحقق لها طمأنينة القلب وهناءة الحياة ولتجربه كما جربت •

دور الايمان فى حياة الانسان :

ليس غير الايمان بالله بلسم للروح ، أو شـفاء للصدر ، أو ترياق لأمراض القلق والحيرة والشك والارتياب ، وكيف يمكن أن يكون الانسـان قادرا على مواجهة شـدائد الحياة بشجاعة وصبر دون الايمان بالله •

عندما يتمثل الانسان ربه الخالق المدبر المحيط بالأمر كله تمتلىء نفسه بالاطمئنان لكل ما يقع فى حياته فلا يستسلم لليأس ، ومن ثم يتجـدد أمله كلما أخفق لجولة أخرى فيها النصر والفوز ، فاذا عرف أن الله لا يضيع أجر من أحسن عملا ، قوى أمله المتجدد وزاد فى كفاحه وسعد •

والمسـلم دائما فى موقف الرضا والأمل فى حالة العسر واليسر ، ولا تذهب نفسه مذهب التشاؤم ، لأنه يؤمن برحمة الله أولا وعدله ثانيا ، وانه لا تزر وازرة وزر أخرى ، أما فى الغرب فان التشاؤم ظاهرة أساسية للنفس مصدرها عقيدة الخطيئة الأصـلية وعدم اقناع العقل وقبـول الفطرة لوراثة البشر خطيئة لم يرتكبوها ، ولقد ساد الغرب طابع الوجدان المتشائم نتيجة هذه القضية وظهرت آثارها القوية على الآداب والفنون والفلسفة والأخلاق ، وهى التى وصلت بهم الى فكرة اللامعقول والعبث ، وتعد الوجودية أعلى مراتب التشاؤم •

القيم التى فرضها الاسلام :

ان الاسلام فوق كونه دينا كسائر الأديان فهو حركة اجتماعية واسعة تشمل الاعتقاد والمجتمع والأخلاق والدولة ، أن ميزة الاسلام أن نظرته كلية شاملة فهو لم يجزىء الحياة ، بل نظر اليها نظرة كاملة على أنها متصلة الأواحد مترابطة الأطراف ، والقرآن كتاب الله ومصدر النظرة الاسلامية .

ولقد جعل الاسلام للقيم سلما وأوليات وحصصا ، وجعل ترتيب هذه القيم حسب أهميتها ، هذه الأوليات والنسب تظل ثابتة ، فاذا تغيرت فسدت المجتمعات وأصابها الاضطراب فلقد جعل التوحيد والعمل والجهاد والزكاة والعبادة فى مقدمة سلم القيم ، وجعل للجسم والمال والزينة والمتاع حصصا أيضا فلم يغفلها ولكنه وضع لها مقاديرها وضوابطها . فاذا ذهبنا تقدم الرغبات والأهواء ضعفت نسبة الأعمال الكبرى وقل قدرها ، وهنا تحدث الأزمات أزمات النفس والمجتمع ، فاذا عاد المسلمون الى سلم القيم مرة أخرى عادت اليهم القوة والكفاءة .

وان من أبرز حقائق الاسلام أنه لا يفرق بين الناس على أساس العنصر أو العرق ، ويقر التفاضل على أساس العمل والسلوك ، ولا يعرف الاسلام الرهبانية او الترف ولا يرفع الانسان عن مستواه البشرى ويفرق بين الألوهية والنبوة وهو يربط بين الدين والدولة ، والدين والعلم ، والدين والأخلاق .

ان أخطر ما يواجه الفكر الاسلامى هو محاولة تجزئته

أو فرض مفهوم الانشطارية الغربى عليه ، ولقد جاء الاسلام حاكما على المدنيات والأمم ولم يجىء محكوما ، وهو ليس مطية للدعوات والمذاهب بل له مقوماته الأصيلة وأحكامه المستقلة وذاتيته الخاصة .

موقف الاسلام من القوتين (المادية ، والروحية) :

غالت بعض الأديان فى تقدير القوة المادية ، وغالت بعض الأديان فى تقدير القوة الروحية ، أما الاسلام فقد وازن بين الناحيتين على أساس أن كلا منهما عنصر أساسى فى الطبيعة البشرية لاغنى عنه لتقدم الانسان ولقد تقرر أن القوة المادية أو القوة الروحية ليست خيرا أو شرا فى حد ذاتها بل فى طريقة استعمال الانسان لها . وتأثيرها النهائى انما يتحدد بالهدف الذى تستخدم له فاذا ما استخدمت لاسعاد الناس وتقدمهم ماديا وروحيا كان رحمة ، واذا استخدمت لاستعباد الناس واذلالهم كانت نقمة ، وهنا تأتى أهمية الدور الذى يؤديه الدين حيث تكون مهمته توجيه الطاقات كلها الى الخير والى الاخاء الانسانى .

كيف عالج الاسلام الانسان :

وقف الاسلام أمام الانسان موقفا متميزا ، مخالفا لموقف الفلسفات والعقائد ، وقد أقام الاسلام هذا الموقف على

أساس تكريم الانسان بوصفه موضع الاستخلاف فى الأرض والنظر اليه من خـلال طبيعته الأصـلية الجامعة بين الروح والجسم ، والعقل والقلب ، وبوصفه كيانا متكاملا ، وبذلك أقر برغباته المادية كلها وأباحها له دون أن يقيدها الا بضوابط قصد بها حماية الانسان نفسه من الانهيار والتدمير ، وحتى يكون قادرا على أداء رسالته ومواجهة تحديات عصره دون أن يضعف أو يتحطم .

وجعل سـعيه فى الحياة الدنيا مرتبطا بالجزاء فى الآخرة ، وأعطاه المسئولية الفردية والالتزام الخلقى لكى يواجه العالم من منطلق الكرامة ، وجعل مسيرته كلها خالصة لله . فالانسان فى مفهوم الاسلام ، روح وعقل وجسد ونفس ، وكل التفسيرات التى تتناوله من جانب واحد هو جانب الجسد كالمادية الغربية ، أو جانب الروح كالمذاهب الشرقية كلاهما خاطىء ، كذلك تفسير حياته وتاريخه من مصدر واحد هو الطعام أو الجنس أو البيئة هو تفسير انشطارى فاسد لا يصل الى الحقيقة ، وليس هناك منهج متكامل لفهم الانسان فى العبادة كلها سوى منهج الاسلام والانسان فى مفهوم الانسـان ثابت الجوهر متغير الصورة ، ولا يرفع الاسلام الانسان عن مستواه كمستخلف فى الأرض ولا يخفضه عن مكانته ، فالكائن الانسانى كل متسق فى حياته بأبعادها الثلاثة : الجسدية والنفسية والاجتماعية فى كل أزمة يصاب بها لابد أن تكون النظرة شـاملة لهذه الجوانب ، دون فصل بينها .

الفكر الذى يبغضه الاسلام :

الاسلوب الذى قدمه القرآن للمعرفة هو الأسلوب العميق الفطرى ، المتصل بالقلوب والعقول والأرواح والعواطف ، هو الطريق الذى أقنع راعى الابل والصياد واجتذب الطفل والمرأة والمثقف والجاهل بعيدا عن التعقيدات المنطقية والعقلية ، وهو طريق الأنبياء وهو أصح طريق للاجيال المتجددة وهو أصح وأسلم وأعمق أثرا من أساليب الفلاسفة والمعتزلة والصوفية على السواء لأنه منهج القرآن .

لقول الامام الغزالى : (ان أدلة القرآن مثل الغذاء ينتفع به كل انسان وأدلة المتكلمين مثل الدواء ينتفع به آحاد الناس ويستضر به الاكثرون بل أدلة القرآن كالماء الذى ينتفع به الصبى الرضيع والرجل القوى ، وسائر الادلة كالاطعمة التى ينتفع بها الاقوياء مرة ويمرضون بها مرة أخرى ولا ينتفع بها الصبيان أصلا) .

ولقد جاء الاسلام بفكرة رئيسية فى المعرفة : هى فكرة الحق، فى كل شىء فيما يتعلق بالكلام عن الله وعن أساس الحكم على الأشياء ، وجاء يحارب التقليد والجمود ، ويحارب الرأى القائم على الظن والحكم القائم على الهوى ، ويطالب بالدليل والبرهان

الاسلام منهج ثابت .

الاسلام منهج وليس نظرية ، منهج متكامل يستهدف تحقيق اقامة المجتمع البشرى ، الربانى المصدر ، الانسانى الاتجاه ،

وما يزال ارتباط الاسلام بمنابعه الأصيلة من القرآن والسنة ، ونصه الموثق هو العامل الأول والأكبر الذى يحول دون سقوطه فى هوة الانحراف ، وهو الذى يعطيه القدرة الدائمة على اعادة تشكيل نفسه بعد الأزمات وفى مواجهة التحديات .

ان محاولة وضع الاسلام تحت ضوء المناهج العصرية المتحدة من الفكر المادى من شـــأنه أن يحجب حقيقة أبعاده . ولقد عجز علم الأديان المقارن عن تحليل الاسلام كما فعل مع بقية الأديان ، ذلك لأنه أسقط أهم معـــالم هذا الدين **وهو الوحى والنبوة وعالم الغيب** .

فالاسلام الذى هو ليس من صنع البشر وليس كتابه من عمل البشر والذى يختلف عن المـــذاهب والنظريات الخاضـــعة لأهواء البشر والذى يستمد أصالته من مصدره الربانى ويتجاوب مع الفطرة والعقل والعلم ويوازى الطبيعة البشرية ولا يناقضها لعجز أدوات العصر عن استيعابه الا اذا درســـته من خلال مناهجه هو .

ان للاسلام ذاتيته ومقاييســـه الخاصة ، ومفاهيمه تنبعث من أصول ثابتة هى الوحى والفطرة والعقل بينما تنبعث مفاهيم الفلسفات من الفروض التى تبدأ بالظن وتبنى على القرائن ، **ومفهوم الاســـلام يقرران لكل قيمة من القيم وجهيها المادى والمعنوى** لا انفصال بينهما ، بينما تقرر الفلسفات وجها واحدا اما ماديا أو معنويا ، فقد عجزت عن التكامل وقبلت بالانشطارية

أن الله تبارك وتعالى قد اختار لهذه البشرية فى ختامها ثلاثة

أمور : الاسلام دينا ، ومحمدا صلى الله عليه وسلم رسولا ، والقرآن كتابا ، واختار اللغة العربية لغة القرآن : لغة لأهل الجنة • وأنه حقق ثلاث ظواهر هامة : أولاها هيمنة القرآن على كل ما سبقه من كتب السماء وثانيها وراثة الاسلام والنبى محمد لتراث النبوة كله وميراث ابراهيم من المسجد الحرام الى المسجد الأقصى ، وثالثها : اظهار الاسلام على الدين كله •

ان مفهوم الدين فى نظر الغرب هو اقامة العلاقة بين الانسان والله ، وحسب ، دون أن يكون **للدين صلة باقامة العلاقة بين** الانسان والمجتمع فى شئون الاقتصاد أو السياسة أو القانون أو التربية • وللغرب فى هذا الفهم للدين أسباب خاصة به ، وعوامل وظروف تاريخية تتصل بالدين وبالتفسير الغربى للدين ، ومدى ارتباط ذلك كلـــه بالفكر اليونـــانى والقانون الرومانى والحضارة السائدة اذ ذاك فقـــد دخل الدين على أوربا وهى مشكلة تماما • مجتمعا وحضارة فأقتصر تأثيره على مجال الروح والأخلاق ، أما بالنسبة للاســـلام فالأمر يختلف ، فقد شكل الاسلام مجتمعا من اللبنة الأولى على مفاهيمه وقيمه ومقاصده واذا قال الغرب بفصل الدين عن السياسة ، أو عن المجتمع ، أو عن الأخلاق ، أو عن الاقتصاد فذلك شأنه ، وهو أمر متصل بتاريخه وظروفه • أما الاسلام فليس مفصولا عن ذلك كله بل مرتبط به فقد أقام البناء كله على أساس التكامل والوحدة •

لقد رفع الاسلام راية العقل والعلم والتجريب وحملها الى العالم كله ، وكانت أوربا قبل الاسلام تعيش على الرهبانية والفكر النظرى المتصل بالسحر والأسطورة ، فكان الاسلام هو مصدر الانتقال من عالم النظر والتأمل الى عالم التجريب •

الاسلام دعوة الى التحرر :

ان أول الجهاد الدفاع عن روح الاسلام فى بلاده ، ذلك أن روح الاسلام اذا ضعفت فى المسلمين فلن يستطيعوا أن يحملوا أمانته الى العالمين ، ولا أن يحتملوا فى سبيل تبليغه كل فتنة ومحنة ومشقة •

ولذلك فقد كانت دعوة الاسلام الأولى الى التحرر من التبعية ومعارضة التقليد للاجنبى حتى لا يذوب المسلمون فى كيان الأمم ، بينما جاءوا ليحملوا للبشرية فكرا جديدا تختلف عن الفكر البشرى وربما يتعارض كثير من قيمه ومقولاته • ذلك انهم حملة رسالة التوحيد الخالص للعالمين ، وللتوحيد شارة واضحة قادرة على مواجهة كل الاشارات والنظريات بالرأى الواضح الصحيح •

ولذلك ، ولكى تكون هناك أمة قائمة بالحق الى قيام الساعة حذر الاسلام المسلمين من التشبه بغيرهم وحرص على أن تظل شخصية المسلم وفكره وحضارته ومجتمعه متميزة ، ومن أجل ذلك أعلن حربا لاهوادة فيها على التقليد وعلى التبعية « **من تشبه بقوم فهو منهم** » ودعا الى اعلان التميز فى القيم والأخلاق والمثل ولا ريب أن التقليد فقدان للشخصية ، والتبعية عبودية للفكر والعقل ، ولا ريب أن آفة الضعيف هى تقليد القوى ، ولا يجرى التقليد الا فى جوانب الضعف والهدم والانحلال وتتركز دائما على الانهماك فى اللذات والتخلى عن القوة أو التماسك أو الصمود •

ولا يمنع هذا الموقف من مراجعة كل ما تقدمه الأمم والأخذ بالصالح منه والانتفاع به على أن يكون المسلمون قادرين على تجاوز العناصر التى تدمر شخصيتهم وقيمهم وذاتيتهم .

ولذلك فان الدعوة التى تدعونا الى تقليد الغرب ومتابعته فى مظاهر الاجتماع والأخلاق هى دعوة تتعارض مع الأصالة ، والفطرة ، ومع طبيعة النفس الاسلامية ومزاجها الذى شكله الاسلام ، ولاريب أن الظن بأن تلك التبعية تلحقنا بركبهم هى خطأ شائع ، ونصيحة ماكر ، ودعوة ضالة .

الاسلام وحرية البحث :

سوف يعجز العلم عن القضاء على الدين ، بل ان الحقيقة المرتقبة هو أن يؤكد العلم الدين ويعمل فى اطاره . فالاسلام يقرر الاطار الأخلاقى للحياة ، ويرسم منه العلاقات المثلى بين الانسان والانسان ، ويجعل العلم لذلك فى خدمة البشرية لا فى تهديدها وتدميرها لخدمة جماعة من المتسلطين .

ولا ريب أن الاسلام هو الذى أقام للعلم منهجه أصلا ومنطلقه أولا نتيجة حرية البحث وتسامح النفس وسلامة القصد ، فمهد ذلك كله لظهور المنهج التجريبى ، والعلم اليوم بالرغم مما تحوطه من مظاهر المادية وتضطرب حوله من انحرافات الفلاسفة ، فانه قد خطا خطوات واسعة نحو اقرار الايمان بالله والكشف عن عظمة الخالق ، والاعتراف بعالم الغيب ، وهو ما زال يعمل على تحرير نفسه من مفاهيم الفلسفات المادية والجبرية .

ونحن كمسلمين نؤمن بأن أى حديث عن الصراع بين العلم والدين ، فهو ليس عن ديننا ، ولا يتصل بتاريخنا ، وهو لمحيط غير محيطنا ، فان تاريخنا كله لم يعرف هذه التحديات ولا ذلك الصراع الذى يحاولون نقله الآن الى أفق الفكر الاسلامى وهو منه براء .

ويكشف مدى صلة الاسلام بالعلم أن مادة (علم) وردت فى القرآن ٨٦٠ مرة وأن أول كلمة نزلت على النبى من القرآن هى « اقرأ » وقد أقسم الله سبحانه وتعالى بالقلم ومايسطرون وقد أطلقت كلمة العلم فى الاسلام فلم تنحصر فى علم ما ، أو فى نوع معين .

ونحن نعلم أن ما وصل اليه الانسان بعلمه عن هذا الكون هو قليل وأن هذا الذى علمه لا يستطيع أن يفسر له سر الكون أو الحياة ، وان العلم على الرغم من غروره تواضع ، فأقر بأن مهمته هى تفسير ظواهر الأشياء .

ومن أبرز مفاهيم الاسلام التى تميزه تميزا واضحا عن الفكر البشرى أنه :

(أولا) : فصل بين الله والعالم (ثانيا) : فصل بين الألوهية والنبوة (ثالثا) : أنه قرر استحالة أن يرقى الانسان الى مرتبة الألوهية (رابعا) : ألغى الوساطة بين الله والانسان (خامسا) : أنكر سقوط التكاليف الشرعية عن أى انسان مهما بلغ قدره من الايمان .